

دور المؤسسات الدينية في تعليم اللغة العربية خلال الحقبة الاستعمارية (الزوايا القرآنية بأدرار أنموذجاً)
The Role of Religious Institutions in Teaching the Arabic Language During the Colonial Period (the Quranic Zawayas in Adrar as a Model)

أحمد لعربي¹، عبد القادر هيباوي²

Laribi Ahmeb¹ abdelkader hibaoui²

1- جامعة أحمد دراية أدرار، ahmed99K@gmail.com

2- جامعة تامنغست، abd.hibaoui11@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/05/31

تاريخ القبول: 2026/05/29

تاريخ الاستلام: 2024/10/01

الملخص: اضطلعت الزوايا القرآنية خلال الحقبة الاستعمارية بدور بارز في الحفاظ على اللغة العربية، باعتبارها وعاءاً للإسلام وأساساً للتعليم الديني ومكوناً أساسياً لهوية الجزائريين الثقافية والوطنية، حيث ساهمت في توحيد المجتمع ومواجهة السياسات الاستعمارية التي استهدفت طمس الهوية الوطنية.

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور الزوايا خاصة في الجنوب الجزائري وتحديدًا منطقة توات بأدرار ودورها الفعال في صون التراث الديني وتعليم اللغة العربية من خلال استعراض الوسائل والبرامج التي اعتمدتها في التصدي لحملات التغريب وتفكيك الروابط الاجتماعية، مما جعلها حصناً منيعاً في حماية الفكر والعقيدة والهوية الوطنية. **كلمات مفتاحية:** الدور، المؤسسات الدينية، الزوايا القرآنية، اللغة العربية، الحقبة الاستعمارية.

Abstract

In the context of the colonial era, religious institutions, primarily the Quranic schools, played a pivotal role in preserving and teaching the Arabic language as it is the linguistic vessel of Islam, the fundamental pillar of religious education, and an essential element in shaping the resistant Algerian cultural, civilizational, and national identity against colonialism. The Arabic language also served as a key factor in uniting society on cultural, intellectual, and civilizational bases, and it gained a global status due to its close association with the Holy Quran. Given the objective of the Quranic schools to safeguard religious heritage and reject colonial educational policies, this study aims to highlight the importance of these institutions during the French colonial period in the field of education, particularly focusing on Arabic language education by investigating the means available to them, the educational programs they adopted, and their role in countering policies aimed at erasing identity and dismantling social bonds in Algerian society. This study pays special attention to the Quranic schools in southern Algeria, specifically the Tuat region in Adrar, which represented and continues to represent a stronghold in protecting the community ideologically and intellectually against the campaigns of Westernization and ideas that seek to undermine the features of Algerian national and cultural identity.

Keywords: The role - religious institutions - Quranic corners - Arabic language - colonial era.

المؤلف المرسل: أحمد لعربي، الإيميل: ahmed99K@gmail.com

1. مقدمة:

كان للزوايا الدينية في الجزائر أبان فترة الاستعمار دورا هاما في تعليم الأفراد وتوجيههم وتنقيفهم خاصة ما يتعلق بالتعليم الديني الذي كان يركز أساسا على التعليم القرآني والعقيدة والتصوف، وبمجرد ما إن وطأة أقدام المستدمر الجزائر عمل على وضع خطط استراتيجية هدفها القضاء على التعليم بكافة أنواعه وخاصة الديني منه وتجهيل الشعب وطمس معالم الهوية الوطنية، ولعل ما ذكره "البيير دوفو" في مذكراته التاريخية أن مدينة الجزائر سنة 1830 كانت تضم 176 مبنى ديني منها 13 مسجدا كبيرا و 109 مسجدا صغيرا و 32 ضريحا و 12 زاوية، ليتناقص العدد سنة 1862 ليصل إلى 47 مبنى منها 09 مساجد كبيرة و 19 مسجدا صغيرا و 32 ضريحا و 05 زوايا ، وهذا يدل دلالة واضحة على السياسة الاستعمارية التخريبية للمستعمر الفرنسي، فمن خلال ما تقدم يمكننا أن نتساءل: إلى أي مدى استطاعت المؤسسات الدينية عموما والزوايا القرآنية خصوصا المحافظة على اللغة العربية؟

إن لفظ الزاوية في الأصل مأخوذ من الانزواء بقصد العكوف على العبادة أو على تلقي العلم بعيدا عن دنيا الناس ومشاغلم اليومية، إلا أن هذا اللفظ حسب الدكتور عبد العزيز شهي أصبح يقتصر على مراكز تحفيظ القرآن وتعليم أصول الدين الإسلامي والعلم الشرعي ونشر الأخلاق والفضائل الإسلامية... وهي بذلك تمثل حصون العقيدة والإيمان، وأماكن تختزن في صناديقها ورفوفها ذخائر التراث الإسلامي بأدبه وسجاياه الحميدة وملامحه التاريخية والوطنية.

1. تعريف لفظ الزاوية

تتعدد التعريفات للفظ الزاوية حسب المعنى المراد، فيعرفها (دوماس) **doumas** 1847 في كتابه منطقة القبائل بأنها "مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة" . (بروفنسال، 1933، صفحة 223) والظاهر أن هذا التعريف يتفق في الجوهر مع ما كانت عليه في الماضي.

1.1 تعريف التصوف

لقد تشابهت التعريفات التي تناولت مختلف جوانب التصوف، وفي هذا المجال نذكر ما جاء به ابن خلدون "...وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين...وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى . (بن خلدون، 1979، صفحة 863)

أما مصطلح "صوفي" فمعظم الصوفية يميلون إلى رد اسمهم إلى الصفاء، لكن أرجح الأقوال لا تجد لذلك وجهاً ظاهراً في قواعد اللغة، فنسبة الصوفي إلى الصوف، وأن المتصوف مأخوذة منه بقول تصوف إذا لبس الصوف، وقد اختار هذا الانتشاق كبار العلماء من الصوفية. (باشا، 1933، صفحة 279).

وتتميز هذه الحياة بكثرة النوافل كالصوم، والتهجد، وقراءة القرآن، والذكر... الخ، فالطريقة هي سلم الوصول إلى النجاة والسعادة مع مجموعة من الشعارات والممارسات والأذكار التي تختلف من طريقة صوفية إلى أخرى في بعض التفاصيل.

ويقصد بالزوايا عند أهل توات " تلك الصدقات الجارية التي يحبسها الشخص في حياته وبعد وفاته من خلال نص

موثق ومحدد لينتفع بها عامة الخلق، ويحبس لها جملة من الأملاك، ولها مكان وموقع خاص، ويشرف عليها الشخص المؤسس ذاته في حياته... " (الغيثاوي، 2007، صفحة 46).

وتنقسم الزوايا بذلك إلى أنواع:

1- زوايا الضيافة: ومهمتها إقراء الضيف من إطعام وإيواء الزوار والغلبة من المساكين والمشردين من عامة الناس الذين لا يوجد لهم مكان يؤويهم.

2- زوايا العلم: ومهمتها التعليم فقط ونشر المعرفة، فتقتصر على التعليم دون الإيواء والإطعام.

2. وظائف الزوايا

تُعدّ الزاوية، شأنها شأن سائر المؤسسات الاجتماعية، كياناً نشأ أساساً استجابةً لجملة من الحاجات الاجتماعية الملحة، وقد تبلورت هذه الحاجات في صورة وظائف محددة اضطلعت الزاوية بأدائها، انطلاقاً من إدراكها لمسؤوليتها تجاه المجتمع بوجه عام، وتجاه الأفراد المنتسبين إليها أو المقبلين عليها بوجه خاص، وتتمثل هذه الوظائف فيما يأتي:

1.2 الوظيفة الدينية والاجتماعية: تعد الوظيفة الدينية في الزوايا من الوظائف المحورية لها فقد «جسدت تجارب روحية جماعية من خلال تعزيز الإيمان وتقوية الروابط بين الأفراد وتنظيم الأنشطة الدينية والتربوية، كما أنها ساهمت في نشر القيم الأخلاقية وتوجيه الناس نحو السلوك المستقيم وهي بذلك تمثل مساحة للتبادل المعرفي والروحاني، مما يساعد في بناء مجتمع متماسك روحياً وأخلاقياً». (مراد، 1999، الصفحات 74-75)

فالتعبّد الجماعي في الزوايا يمارس وفق منهجية دينية محددة، ويُعدّ أحد الأشكال الاجتماعية التي يُنتجها الدين في حياة الجماعة، لما له من دور بارز في تعزيز الالتفاف الجماعي وترسيخ التماسك الديني والاجتماعي بين أفراد المجتمع.

فالمعروف عن الزوايا اهتمامها البارز بالجانب الاجتماعي، حيث تنتباه وتفعله عبر أساليب متعددة وصور متنوعة تظهر مدى عنايتها بالجانب الاجتماعي « فلقد اضطلعت الزوايا الجزائرية بدور اجتماعي لا يستهان به، حيث لعبت دورًا بارزًا في توجيه الساكنة نحو قيم أخلاقية أساسية، فهي بمثابة الملاذ الآمن للمجتمعات الريفية خاصة في فترات الفوضى والاضطراب، مسهمة في تعزيز الانتماء والتضامن بين الأفراد من خلال تعليم المبادئ الأخلاقية كاحترام الكبير وإكرام الغريب، كما كانت بمثابة بركة للقبيلة أو الدور في فترة كانت فيها الساكنة الإسلامية للأرياف غير مسيرة كما ينبغي، وعرضة لتعسف الأقوياء الذين سعت الزوايا إلى تلقينهم مبادئ الأخلاق الاجتماعية الضرورية. (مراد، 1999، صفحة 75)

وبهذا نجد الزاوية تساهم في خلق الاستقرار الاجتماعي وذلك ببثها قيماً تكرر ذلك الاستقرار وتلغي تجبر الأقوياء، ونسبة الجميع للزاوية فتصبح سلطتهم موحدة، كما تسعى الزوايا أيضاً إلى حفظ المجتمع من العديد من الآفات الاجتماعية الحاصلة نتيجة الفقر والعوز وذلك باحتضان هؤلاء المتشردين والذين لا مأوى لهم ومساعدتهم بما يحتاجونه، والمساهمة أحيانا في ممارسات اجتماعية أخرى كالزواج الجماعي لمن لا يستطيعون ذلك نتيجة فاقتهم،

ومن خلال الانتساب إلى الزاوية يكتسب الفرد مكانة اجتماعية مميزة، تتبع أساساً من نظرة التقديس والاحترام التي يوليها المجتمع للمنتسبين إليها، ولا سيما في الأوساط الشعبية، ويُنظر إلى المنتسب للزاوية على أنه ملّم بالعلم الشرعي، الأمر الذي يمنح حديثه وزناً واعتباراً، ويجعله محلّ قبول واستجابة من الآخرين، ويتعزز ذلك أكثر إذا كان من مشايخ الزاوية أنفسهم، كما يحظى هذا المنتسب بأولوية اجتماعية في مسائل الزواج، لما يتمتع به من سمعة طيبة باعتباره منتسباً أو متخرجاً من الزاوية، إذ يُنظر إليه بوصفه شخصاً تقياً ومدرّكاً لشؤون دينه.

فالزوايا دأبت على التصدي لكل ما من شأنه أن يصدع وحدة الجماعة، ولذلك نراها سبّاقة إلى القيام بعملية الصلح وفض الخصومات والنزاعات الحادثة بين الأفراد أو الفئات الاجتماعية ... فيذهب شيخ الزاوية ومن يرافقه من ذوي الجاه المقبولين إلى المتخاصمين لمحاولة الصلح، التي تنتج عادة بنتائج إيجابية تضمن استمرار وحدة المجتمع واستقراره بفضل ما يتمتع به شيوخ الزوايا من احترام وتبجيل لدى المواطنين. (بن زيطه، 2000)

فالوظائف الاجتماعية للزوايا متعددة وهامة، حتى أنه قد يخال لك أحيانا أنه لا يمكن لأي مؤسسة القيام بها بأكثر فاعلية من الزاوية ذاتها، وهذا راجع لمكانتها والاعتقادات التقديرية أحيانا التي تحوم حولها.

« تعتبر التربية الدينية والتوجه القرآني من الركائز الأساسية في الزوايا، حيث تسعى إلى تهذيب سلوك الأفراد وتحقيق الاستقرار النفسي خاصة في مرحلة المراهقة من خلال التركيز على القيم الإسلامية، وتشكيل شخصية الشباب وتنمية سلوكيات إيجابية تنعكس على تصرفاتهم اليومية، كما تؤدي الزوايا دورًا فاعلاً في مجال التعليم المدني، إذ تعتمد نظاماً منضبطاً ودقيقاً ينظم مختلف جوانب حياة الطلبة، ويتشرب المتعلمون من خلال هذا النظام جملة من القيم والسلوكيات، من أبرزها احترام الوقت والمواعيد، والمحافظة على أداء الفرائض، إلى جانب الانخراط في الأنشطة التطوعية، ولا يقتصر أثر هذا التنظيم على ترسيخ الانضباط الذاتي فحسب، بل يتعداه إلى تعزيز قيم التعاون والعمل الجماعي وخدمة المجتمع، وبهذا تسهم الزوايا في إعداد أفراد واعين ومسؤولين، قادرين على مواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية، بما يدعم دورهم في بناء مجتمع متماسك ومتناغم. (مريوش، 2007، صفحة 173).

وسنحاول التفصيل أكثر في الجانب التعليمي للزوايا في العنصر اللاحق.

22. الوظيفة الجهادية.

إن استقلال الجزائر يدين بالكثير للدور الريادي الذي اضطلعت به الزوايا في هذا المجال، إذ غالباً ما تبنت حركات المقاومة والثورات المناهضة للاستعمار، فقد أدت الزوايا وظائف أساسية في ميدان الجهاد، حيث تحولت إلى ملجأ للفقراء والمضطهدين، وأسهمت في تعبئتهم وتحفيزهم إيديولوجياً، مما جعلها مصدراً للصبر والأمل، ومحركاً للعديد من حركات التمرد والثورات، وإلى جانب ذلك قامت الزوايا بدور ثقافي بالغ الأهمية، إذ حافظت على التراث والهوية العربية الإسلامية من خلال تحولها إلى مراكز ثقافية أسهمت في صون اللغة والدين والقيم الحضارية ومعاهد علمية» (مكحلي، 2007، صفحة 277)، وقد انتهت هذه الوظيفة باستقلال الجزائر وأصبح التركيز على الوظائف الأخرى السابقة الذكر أعلاه.

3. نشأة الزوايا بالمغرب الإسلامي والجزائر خاصة .

نشأ نظام الزوايا بالمغرب الكبير بعد القرن الخامس الهجري، إذ سميت في بادئ الأمر حسب الدكتور الشهبي "بدار الكرامة. (عبد العزيز شهبي، 2007)، ومن أهم هذه الزوايا الزاوية التي بناها الخليفة (يعقوب المنصور الموحي) في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، وكذا زاوية العظيمة التي بناها السلطان (أبو عنان المريني) في

القرن الرابع عشر للميلاد، وزاوية (ابن مرزوق التلمساني)، والزاوية الثعالبية في مدينة الجزائر، والزاوية السنوسية بتلمسان، وكثير من هذه الزوايا ظهر خلال القرن الخامس عشر للميلاد حيث تميز بتغيرات سياسية واجتماعية وثقافية في المنطقة بسبب مجيء الأتراك العثمانيين وبسط سلطانهم عليها.

1.3 انتشار الزوايا ومراكزها الكبرى عبر الجزائر.

مما ميز العهد العثماني في الجزائر هو انتشار الطرق الصوفية وكثرة الزوايا المخصصة لهذه الطرق والمذاهب الصوفية في المدن والأرياف، والجلال والصحاري، حيث عاش معظم المتصوفة يثبون عقائدهم ويلقبون أتباعهم الأذكار والأوراد، مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا، إذ نجدها موزعة في كامل التراب الوطني، ففي الوسط نجد زاوية عبد الرحمان الثعالبي، وزاوية ولي دادة، وزاوية عبد القادر الجبالي، وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله، وزاوية الشيخ ابن عامر في البويرة والكثير لم يسعنا المقام لذكرها، أما في منطقة بجاية فنجد كل من زاوية سيدي سعيد ببجاية وزاوية ابن سحنون في تمنراست... الخ.

أما في الشرق والغرب والجنوب فنجد الكثير منها أبرزها على سبيل المثال لا الحصر زاوية سيدي حسن بسطيف، وزاوية الشيخ الحفناوي بقالة، وزاوية الحملاوي بميلة، وفي الغرب الجزائري نجد زاوية الشيخ ابن شرقي بونجار بعين الدفلى، وزاوية بربارة بتيسمسيلت، أما في الجنوب الكبير فنجد زاوية الهامل ببوسعادة، وزاوية الاخضري ببسكرة، وزاوية سيدي سالم بالوادي، والزاوية التيجانية بورقلة وزاوية سيدي محمد بن موسى ببشار... الخ.

أما في منطقة توات وأقاليمها نجد كل من زاوية بوعلي، وزاوية الشيخ بالكبير، وزاوية سيدي عبد القادر، وزاوية البكري، وزاوية مولاي هيبه... الخ. (شهي، 2007، صفحة 14، 18، 40، 45).

4. دور الزوايا في نشر العلم

كانت الزوايا ولا زالت مركزاً للعلم والثقافة العربية الإسلامية، إضافة إلى أنها مأوى للطرق الصوفية والنشاط الديني خاصة، وفي هذا يري (فرج محمود فرج) في أطروحته "إقليم توات" أن بعض فقهاء توات كانوا يبنون الزوايا ويتخذونها أماكن للتعبد إلى جانب تخصيص أجزاء منها للتدريس، وكان الكثير من الطلبة الذين يرغبون في مواصلة تعليمهم، يقصدون المشايخ قصد التعلم على أيديهم ... ويتعلمون آداب الدين وأسباب التنزيل... كما يطلعون على أمهات الكتب ... ليمنحهم بعد نهاية تعلمهم إجازات علمية وأدبية... الخ.

فهذه نظرة سريعة على ما كانت تقدمه الزوايا ولا زالت في سبيل التعليم الذي لا يقتصر على الدين فقط بل يتعداه إلى علوم أخرى.

4.1 نظام التعليم بالزوايا.

عندما يرغب الطالب في الالتحاق بالزاوية، يُشترط فيه التحلي بحسن السيرة والسلوك، وإبداء رغبة صادقة وقوية في طلب العلم، إلى جانب حفظ قدر من القرآن الكريم، فإذا ما انتسب الطالب إلى الزاوية، عُدَّ من طلابها رسميًا، ويُعرف باسمه مقرونًا بنسبةٍ إلى بلدته أو مكان ميلاده، أو إلى قبيلته أو قريته، بما يعكس انتماءه الاجتماعي والجغرافي.. (سعد الله، 1998، الصفحات 324-334)

والزاوية مفتوحة لكل وليس هناك حواجز عمرية، وليس فيها اختبار عند الدخول ولا الخروج منها، فالطالب الجديد عندما يدخل مكان الدرس للمرة الأولى يجد الشيخ أو الشيوخ المدرسين وحولهم الطلبة في حلقات تامة أو نصف دائرية، وكل مدرس يهتم بحلقة معينة ويتناول مسألة أو كتاباً معيناً يدرسه ويتناوله بالشرح والتبسيط، فإذا كان الطالب قد كَوَّن فكرة واضحة عن مدرس بعينه قبل مجيئه إلى الزاوية فإنه يقصده مباشرة ويجلس إلى حلقة ويتابع دراسته معه في المادة أو المواد التي يدرسها هذا الشيخ، إذ أن بعضهم كان يدرس أكثر من مادة واحدة ولكنه قد يشتهر بواحدة، أما إذا جاء الطالب وهو لا يدرى عن يدرس فإنه يجلس إلى المدرسين عدة مرات حتى يستقر رأيه على واحد منهم أو أكثر ويتابع دروسه عندهم مدة قد تطول وقد تقصر (شهبي، 2007)، إذ مع نهاية الحلقة التدريسية أو عند ختمه للمصنف موضوع الدرس فإنه يغادر جميع الطلاب النجباء.

منهج الدراسة.

تميّزت الزوايا بمنهج تعليمي خاص يختلف عما كان سائدًا في غيرها من مؤسسات تلقي المعرفة، حيث كان المدرّس يلقي دروسه ما لا يقل عن ثلاث مرات في اليوم الواحد، سواء في الفترة الصباحية أو بعد الظهر، كما اتسمت العلاقة بين المدرّس والطالب بطابع ترابطي قائم على التوجيه والإرشاد الشامل لكل ما يتصل بالطالب، من كيفية القراءة إلى أساليب تحضير الدروس وغيرها، وتختلف طبيعة هذه العلاقة من طالب إلى آخر تبعًا لدرجة اهتمامه بالعلم ومستوى مثابرته عليه، وتتميّز الدروس المقدّمة في الزوايا بأساليب شرح مفصّلة، إذ كان لكل مدرس «مسمّع» يتولى قراءة النص أو جزءًا من الكتاب المقرر، ثم يعمد الشيخ إلى شرحه وتوضيحه شرحًا مستفيضًا.. (جعفري، 2008، صفحة 46)

4.3 المواد المدروسة

يتميز التعليم في بعض الزوايا بأنه متدرج، ويمكن حصر هذه المواد في ثلاث درجات هي:

1- درجة المبتدئين: ويدرس فيها الطلبة الجدد القواعد النحوية، من خلال عدة كتب كالأجرومية وملحة الإعراب... الخ، كما يدرسون مادة الفقه.

2-الدرجة الثاني : وتتميز بدراسة الطلبة للقواعد ولكن في كتب شذور الذهب، وشرح المكودي على الألفية ..وهذا بعد حفظ القرآن الكريم كله حفظا جيدا.

3-الدرجة الثالثة والنهائية: تمتاز الزوايا بالعناية بدراسة تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، بالاعتماد على مجموعة من الكتب المعتمدة، من بينها تفسير الواحي في مجال التفسير، وشرح الأحاديث النبوية من خلال مؤلفات مثل كتاب الأربعين النووية وغيرها، ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الشرعية فحسب، بل شمل كذلك العلوم المساندة والمتصلة بها، وعلى رأسها علوم اللغة العربية؛ حيث يُدرّس النحو من خلال متن الأجرومية وألفية ابن مالك مع شروحاتها، ولا سيما شرح المكودي، إلى جانب علم الصرف من خلال لامية ابن مالك في التصريف وغيرها من المتون المعتمدة وهذا يأتي في درجة متقدمة بالنسبة للطالب.

علوم المحضة: ويدرس فيها المنطق بالسلم المرونق للاخضري، وتهذيب السعدي.

5.سياسة الاحتلال في تهमيش اللغة العربية وتصدي الزوايا لها.

إن محاولات المحتل فرض لغته على المجتمع الجزائري لم تقتصر على ميدان التعليم في مختلف مراحله من مناهج ونظم وكتب، ولغة تدريس، بل كان الهدف من كل هذا هو محاولة صبغ البلاد بصبغة فرنسية خالصة في كل صغيرة وكبيرة، حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بثقافتها ولغتها العربية وتاريخها الإسلامي، وبصفة عامة يمكن إجمال الخطوات العامة لسياسة فرنسا في التعليم والثقافة في الأمور التالية: (شهي، 2007)

- محاربة اللغة والثقافة العربية.
 - فرنسة التعليم في جميع المراحل.
 - محاولة تشويه تاريخ الجزائر.
 - عدم تدريس جغرافية الجزائر للجزائريين.
- ولما كان هدف التعليم في الزوايا ينصرف أساساً إلى المحافظة على التراث الديني ومقاومة السياسة التعليمية الاستعمارية، فقد اتجهت الزوايا توجهاً لغوياً ودينياً واضحاً، تمثل في التركيز على التعليم الشرعي إلى جانب تحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، باعتبار أن اللغة العربية تمثل لسان الإسلام، وتشكل في الوقت ذاته انتماءً ثقافياً وحضارياً وأحد المقومات الأساسية للشخصية الوطنية الراضية للاستعمار.

1.5 سياسة التنصير والتصدي لها بالمحافظة على الدين.

يعتبر التنصير محاولة لإخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي، وإدخالهم في دين النصرانية كي يصبحوا مسيحيين يحملون عقيدة المحتل، وقد تجلت هذه السياسة التنصيرية غداة احتلال فرنسا للعاصمة الجزائرية عام 1830م، حيث كانت الغاية من وراء هذا الغزو العمل على نشر المسيحية فيها، ونستشف ذلك من خلال احتفال فرنسا بذكرى مرور مائة سنة لاحتلال الجزائر في مقولتهم «...إن المغزى الحقيقي من وراء إقامة هذه الاحتفالات، إنما هو تشييع جنازة الإسلام» (الإبراهيمي، 1966، صفحة 147)

وقد تجلّى هذا الواقع عملياً في احتضان الزوايا وتعاونها مع الجمعيات التبشيرية التي عملت في الجزائر، رغم ما نص عليه دستورهما من علمانية وتحويل بعض المساجد والمدارس إلى كنائس أو حظائر للمواشي، وفي الوقت نفسه واجه الجزائريون هذا الغزو بمقاومة كبيرة، تمثلت في جهود رجال الزوايا لتعليم النشء اللغة العربية بهدف تربية الدين ونشره، وفهم القرآن الكريم وما يتصل به من علوم الشريعة والأخلاق، ومن خلال ذلك أسهمت الزوايا في الحفاظ على مبادئ الشخصية العربية الإسلامية وتعزيز الهوية الدينية والثقافية للمجتمع.

2.5 سياسة الإدماج والتصدي لها بالمحافظة على الروابط .

تميزت سياسة المحتل بتركيزها على إزابة الشخصية الجزائرية في الكيان الأكبر ألا وهو المحتل الفرنسي، فقد عملت على ربط الشعب الجزائري سياسياً وإدارياً بفرنسا محاولة هدم الثقافة واللغة في الشخصية الفرنسية، حيث تم التركيز على التعليم وذلك بفتحته إلا في نطاق محدود للجزائريين، ونفس الشيء بالنسبة للعمل والهجرة نحو فرنسا ذلك وفق سياسة العدو... (شهبي، 2007).

وقد برز دور الزوايا في محاربة هذه السياسة من خلال القضاء على الاتجاهات المنحرفة التي كان جلها من صناعة المحتل قصد التفريق وتمزيق الشخصية الجزائرية وربط الجزائر بفرنسا وثقافتها وحضارتها.

3.5 دور الزوايا و الطريقة الصوفية في عملية البناء.

1.3.5 دور الزوايا في نشر العلم ومحاربة الجهل.

كانت الزوايا ولا تزال مراكز للعلم والثقافة العربية الإسلامية، فضلاً عن كونها ملاجئ وبيوتاً للعمل الخيري، ومع ذلك تميّزت بشكل خاص بتحفيظ القرآن الكريم وعلومه، إضافة إلى تدريس اللغة العربية وعلومها، وعلوم الدين واللسان، بما في ذلك حفظ المتون مثل متون النحو والصرف والفقه والتوحيد، وقد اعتمدت الزوايا أساليب بيداغوجية دقيقة في التعليم يتمثل أبرزها في تعليم الصبيان القرآن الكريم أولاً، وتطبيق طريقة المراجعة الليلية لأجزاء القرآن، بهدف ترسيخ الحفظ وتثبيته.

وإنه يمكننا حصر بعض إنجازاتها في محاربة الجهل ونشر العلم، من خلال الكم الهائل من المخطوطات والتراجم التي أبدعها علماءها، إلى جانب المراسلات، والإجازات، والنوازل، والأقضية، التي ساهمت في نقل المعرفة وتوثيقها عبر الأجيال.

ما هذه النظرة السريعة إلا دليل على الدور الكبير الذي ظلت الزوايا تضطلع به في محاربة الجهل، ونشر المعرفة الإنسانية، وتنمية القيم الدينية والثقافية، وبناء الشخصية الجزائرية المتينة الواعية لهويتها، القادرة على مواجهة التحديات الفكرية والاجتماعية، والمساهمة في صون التراث والحفاظ على الهوية الوطنية عبر الأجيال.

2.3.5 العزابة بوادي ميزاب "نموذجاً".

من المعروف أن لكل تنظيم أهدافاً وغايات يسعى لتحقيقها، وهذا ما نجده جلياً في نظام العزابة، الذي كانت غاياته الأساسية تتمثل في التعليم والتوجيه الديني، بما يتماشى مع تطورات المجتمع الإباضي وتعدّد شبكة العلاقات والاحتياجات فيه، ومع مرور الزمن توسعت هذه الغايات لتشمل رعاية الفرد الإباضي في جميع مناحي حياته، ليس على المستوى الديني فحسب، بل أيضاً على الصعيد الاجتماعي الثقافي والسياسي، لا سيما بعد تشكّل مدن ميزاب السبع، وقد أدى ذلك إلى تطور نظام العزابة ليصبح هيئة إشرافية على تسيير المجتمع، تضمن استمراره وتنظيمه بشكل متكامل.

وبناءً عليه، يُعدّ نظام العزابة أداة محورية في الحفاظ على الهوية الوطنية، إذ يساهم في صيانة القيم الدينية والثقافية والاجتماعية، ويُعزز الانتماء الجماعي، ويرسخ المبادئ التي تُميّز الشخصية الجزائرية وتضمن استمرارها عبر الأجيال.

ماهية نظام العزابة.

بدايةً، ارتكز نظام العزابة على أهداف تعليمية وتوجيهية، كان أبرزها تكوين الأجيال وإعدادها دينياً وأخلاقياً، غير أن هذا النظام تطور مع تغير الظروف والعوامل المحلية والخارجية، ومع مرور الوقت توسعت مهامه لتشمل رعاية الفرد في المجتمع الإباضي في جميع جوانب حياته، سواء الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية والاقتصادية. ويعرفه الأستاذ إبراهيم محمد طلاي بأنه "نظام اجتماعي يقوم على مراعاة الدين والمحافظة عليه، والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الجبهة".... (طلاي، 1970، صفحة 39).

كما يعرفه احمد توفيق بأنه "هيئة عليا في المدينة لها نفوذ روحي على المجتمع الاباضي والسلطة المطلقة". (المدني، 1984، صفحة 110)

يتكوّن مجلس العزابة من اثني عشر عضوًا يشكلون المجلس الديني، ولا يزيد عدد أفرادهِ إلا في حالات استثنائية، مثل التوسع العمراني أو تعدد مصالح أفراد المجتمع، ويترأس المجلس الشيخ والمفتي المسؤول عن الوعظ والتدريس، إلى جانب وجود الإمام والمؤذن، ووكيلان يشرفان على أوقاف المسجد، وثلاثة معلمين مكلفين بتعليم الصغار ويضاف إلى هؤلاء خمسة أعضاء مساعدين تُسند إليهم مهام اجتماعية متنوعة، مثل تجهيز الموتى وغيرها من الخدمات المجتمعية الضرورية

3.5.3. دور العزابة في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

لنظام العزابة مسؤولية كثيرة منها مسؤولية الدفاع عن المجتمع الميزابي ضد جميع أشكال التدخلات الأجنبية و الاحتلال الفرنسي لمنطقة وادي ميزاب و ذلك بصفتهم صفوة هذا المجتمع في حالات الفتن و الحرب .
لقد ظلت المقاومة في وادي ميزاب رافضة للاحتلال الفرنسي بجميع أشكاله و أساليبه ووسائله طيلة عهده ومن الوسائل التي اتخذتها المقاومة في مواجهة الاحتلال :

- التثبيت بالقيم الأصيلة ديناً و لغة وقد لعبت المساجد دوراً كبيراً في نشر اللغة العربية لكونها لغة القرآن و لكونها أيضاً البديل الطبيعي الذي سيقف في وجه ثقافة المحتل و أساليبه ووسائله مما أعطى للصراع بين العزابة و المحتل طبيعة سياسية في شكل ديني أو ثقافي .

- وقوفهم ضد التجنيد العسكري الإجباري حين عازمت سلطات الاحتلال تطبيقه على سكان وادي ميزاب ودام طويلاً من سنة 1912 إلى غاية سنة 1943 وفضل الميزابيون أداء الضرائب الباهظة مقابل الحفاظ على دين آبائهم و أخلاقهم. (ناصر، 1989، الصفحات 38-39)

- إعلان الحرب والمقاومة من قبل الإمام الشيخ بيبوض وهو من العزابة ضد فساد القياذ واتباعهم و قد بلغ الصراع ذروته في الثلاثينات حين فرضت عليه السلطات العسكرية الإقامة الجبرية بالقرارة إبان الحرب العالمية الثانية وذلك لتجعل حداً لنشاطه الإصلاحية الواسع الذي تجاوز حدود القرارة ليشمل وادي ميزاب كله . (ناصر، 1989، الصفحات 41-42).

خاتمة:

تعتبر المؤسسات الدينية عبر مراحل تاريخها مدارس لتكوين الأفراد وتأهيلهم، ومعاهد لتحصيل العلوم اللغوية والدينية، ومجالس لنشر الوعي والثقافة بين عامة الناس، وقد أسهمت هذه المؤسسات في حفظ قيم الجزائر الروحية والوطنية، وصيانة أصالتها ومقومات شخصيتها، رغم الفترة الاستعمارية التي عطلت مشروعها الحضاري والتربوي. ولولا جهود القائمين عليها لما بقي للغة العربية في الجزائر أثر يُذكر، فقد كانت ولا تزال هذه المؤسسات ركيزة أساسية داخل المجتمع الجزائري، وأحد أعضائه الجوهرية التي لا يمكن الاستغناء عنها، وبكفي الرجوع إليها والاهتمام بها لتقدير فضلها ودورها الكبير، خاصة في الأوقات الصعبة التي مرت بها البلاد.

ولولا الجهود الدؤوبة التي بذلها القائمون على هذه المؤسسات، لما بقي للغة العربية والحياة الثقافية والدينية في الجزائر أثر يذكر، فهي بحق ركيزة أساسية في المجتمع الجزائري، وعضو لا يمكن الاستغناء عنه، يعكس الوعي الجماعي ويضبط سير الحياة الاجتماعية والدينية، فلقد كانت الزوايا ولا تزال ملاذًا للفرد والمجتمع على حد سواء، ومنازة للعلم والمعرفة، ومصدرًا للقيم الأخلاقية التي تعزز التعاون والتكافل والتضامن بين الناس.

ومن هنا فإن استمرار الزوايا في أداء دورها الحيوي أصبح ضرورة ملحة، ليس فقط لتربية الأجيال على الدين واللغة، بل لتعزيز البعد الروحي الذي يحتاجه المجتمع لتحقيق التوازن والاستقرار في حياته، ومواجهة التحديات الفكرية والاجتماعية والثقافية التي يفرضها العصر الحديث، وما نتمناه أن تبقى الزوايا قائمة شامخة، محافظة على رسالتها التربوية والدينية، ومستمرة في دورها البناء كمنارة للعلم والثقافة والهوية الوطنية، لتظل على الدوام مرجعًا للأجيال القادمة وصرحًا شامخًا يعكس أصالة المجتمع الجزائري وعزيمته على صون تراثه ومبادئه.

التوصيات والاقتراحات.

ومما سبق ذكره نخلص إلى أن الزوايا القرآنية دخلت اليوم مرحلة جديدة فرضها الواقع والتحديات المعاصرة لذلك يجب القائمين عليها أن يستشرفوا خططا جديدة للاستفادة من مختلف التغيرات التي طرأت على العالم ككل، فمن أهم التوصيات نجد:

- ضرورة الانفتاح على المؤسسات التربوية والتعليمية خاصة في المناسبات الدينية.

- ترسيخ القيم الروحية في الفرد المسلم مع ضرورة التعاون مع كافة المؤسسات التربوية الموجودة في المجتمع.

. الانفتاح على الجامعة الجزائرية وتحفيز الطلبة على البحث في الخطاب الديني المعتدل تاريخيا وفكريا ولغويا وأدبيا.

. الانفتاح على مختلف الأفكار والروافد الفكرية والثقافية واحترامها ومعالجة المخالف منها للقيم الدينية.

. القيام بأدوار الصلح والقضاء من طرف القائمين عليها مع ما يتماشى والوقت الراهن.

قائمة المراجع والمصادر:

- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الاول (الإصدار 1). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- أحمد توفيق المدني. (1984). كتاب الجزائر. الجزائر.
- علي مراد الحركة الإسلامية في الجزائر 1999 الجزائر دار الحكمة
- الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني 2007 الجزائر منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث
- الزوايا 1933 القاهرة دائرة المعارف الإسلامية
- الزوايا زل الصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر 2007 الجزائر دار الغرب للنشر والتوزيع
- اهتمام زوايا المنطقة بالقراءة والخطابة 2007 مجلة رسالة المسجد 2
- تاريخ ابن خلدون الجزء الأول 1979 بيروت دار الكتاب اللبناني
- حلقة العزابة 1989 الجزائر
- دور الزوايا الاصلاحية في تحضير ثورة التحرير 2007 مقدمة ضمن الملتقى الوطني الاول حول الزوايا
- ابان المقاومة والثورة التحريرية الجزائر منشورات وزارة المجاهدين
- شيوخ الطريق ومتى يكون له اثر في المجتمع 2000 مقدمة ضمن الملتقى الوطني الاول حول الزوايا بين
- تأكيد الاصاله ومطالب المعاصرة الجزائر جامعة احمد دارية
- مادة التصوف 1933 القاهرة دائرة المعارف الإسلامية
- محمد البشير الإبراهيمي. (1966). مجلة مجمع اللغة العربية (21).
- ميزاب بلد كفا 1970 قسنطينة
- وقفات تاريخية في أعماق الذاكرة التواتية - محمد بن اب المزمري (1160 هـ) حياته وأثاره 2008 الجزائر دار الغرب للنشر والتوزيع